طرائف من العصر المماليكي :

الحـــركة العلمية

للأســـتاذ محمود رزق سليم

جميل بنا أن نعنى بدراسة تاريخ مصر ، ونتعرف إلى نواحيه المختلفة ، لنشهد ما قدمه بنوها فى أجيالهم المتعاقبة من جهود فى مضمار العلم والأدب ، ولنعرف مكاننا من المدنية ، وموقفنا من الحضارة الفـكرية . فإن مصر فى عصورها المتعددة كانت تشترك باستمرار وبرغبة ذاتية فى بناء المدنية والحضارة ، وتسعى دائبة لرفع لوائهما ونشر سلطانهما .

والعصر الذى نحن بصدده ، عصر فريد من عصور مصر ، وبخاصة فى اتجاهاته العلمية . وهو لذلك جدير بالبحث والتمحيص أكثر مما بحث ومحص . بل لا أغلو إذا قلت إن الغموض لا يزال يكتنفه من نواح عدة . بل لا تزال الفـكرة المركزة فى أذهان كثير من الأدباء عنه ، مشوهة ظالمة . ولذلك يتأبى بعضهم على البحث فيه وتمحيص نواحيه . مع أن أبناءه حملوا من أمانة العلم والأدب مايثرد . ألقته المقادير على كواهلهم إلقاء ، فحملوا الأمانة وأدوا الرسالة ، صابرين فى الحمل ، محسنين فى الأداء .

نهضت بغداد من قبل ، برسالة العلم والأدب زهاء خمسة قرون وكانت — فى الجملة — شمساً للبلاد الإسلامية شرقيها وغربيها تستضىء بهديهـــا ، وتسير على قبس منها . فلما دهمها التتار عام ٦٥٦هـ ، وأزالوا خلافتها ، ونكلوا بأبنائها وعبثوا بمؤلفاتها ، ضاعت بذلك ثمار كثيرة من ثمار هذه القرون الخمسة ، ووقفت بها رحى العلوم والآداب إلا لماماً لماما . هنا لم تجد القاهرة بدا من الظهور فى الميدان ، أكثر مما كانت ظاهرة ، وتقدمت لحمل أمانة العـلم والأدب برغبة وشجاعة . ولولا تقدمها لحبا الزناد وكبا الجواد ، وانقطعت سلسلة العلوم والآداب الإسلامية ، وتوارت عن الأنظار أمداً طويلا .

وقد هيأ الله للقاهرة من الأسباب ماعاونها على بلوغ غايتها . فقد كانت حينذاك عاصمة لأقوى مملـكة إسلامية ، ورزقت ملوكا أحسوا أن عليهم واجب حماية الدين والحرص على بلاد المسلمين . فدافعوا عنها أعداءها ، ووطئوا للعلماء أكنافهم ، ورحبوا بالقادمين منهم إلى مصر . وأغرى العلماء مافى مصر من خير وكرم وحسن وفادة وطيب لقاء . فوفدوا إليها تباعا من كل فج ، واتخذها بعضهم دار مقام ، حتى أصبحت منتدى العرب ومحج المسلمين ، وقبلة علمائهم وطلاب العلم فيهم ، من كل بلد ومحلة .

وقد دعمت هذه الحياة بتجديد الخلافة الإسلامية منذ عصر الظاهر بيبرس . فأصبحت الخلافة — على علاتها — ذات قوة أدبية لها تأثيرها الروحى فى نشاط الحركة العلمية الإسلامية ، وعاونت مصر على أن تكون بيئة دينية صالحة جليلة القدر ، ينبت فيها ويفىء إليها علماء الدين على اختلاف مذاهبهم .

ولم يدخر السلاطين وسعاً — كما نوهنا — فى تبجيل العلماء وتعظيمهم أمام الخاصة والعامة ، حتى اطمأنت نفوسهم ، ولم يلههم عن الإنتاج العلمى شىء من جوع أو خوف . وحرصت أجيالهم الناشئة على متابعة جهودهم العلمية لتظل لهم هذه المنزلة السامية لدى السلاطين والشعب .

ونذكر منهم على سبيل المثال : عز الدين بن عبد السلام وكان يدعى بسلطان العلماء ، وكان الظاهر بيبرس يهابه ويقدر رأيه . وتقى الدين بن دقيق العيد ، كان السلطان لاجين يقبل يده . وعلاء الدين السيرامى فرش له السلطان برقوق السجادة بيده .

وإلى جانب هذا سرت فى السلاطين والأمراء ومن إليهم ، روح عجيبة قوية لإبقاء أثرهم وتخليد ذكرهم . واتخذوا إنشاء المساجد الجامعة فى مقدمة وسائل هذا الإبقاء والتخليد ، قربى إلى الله وزلفى ، وليتعبد فيها الناس وليتفقهوا فى دينهم . وقرروا فيها الدروس ، وعينوا لكل درس شيخاً ، ورصدوا لذلك الأوقاف الطائلة ، ليقيضوا لهذه المدارس بقاء طويلا ، وأجروا على الطلبة المنقطعين فيها لطلب العلم نفقات وأطعمة وأكسية ، وألحقوا بكل مدرسة دار كتب قيمة ، حسدوا إليها الآلاف من المؤلفات الثمينة .

ولم تكن هذه الجهود مقصورة على مدينة القاهرة وحدها . بل اشتهرت إلى جانبها مدن أخرى كثيرة كالاسكندرية وأسيوط وقوص ودمياط ومنفلوط وبوتيج واخميم وأسوان وبلبيس ، هذه فضلا عن المدن الشامية والحلبية والحجازية .

وبلغ عدد مدارس القاهرة نحو خمسين ، فوق ما أنشأه الأيوبيون والفاطميون من قبل . ولا يزال كثير منها ماثلا للعيان فى القاهرة حتى اليوم .

وفى مقدمة هذه المعاهد التعليمية مستشفى قلاوون . بناه عام ٦٨٣ هـ . وكان عبارة عن مدرسة للطب كبيرة . به قسم للحميات ، وقسم للرمد ، وقسم للجراحة ، وقسم للأمراض النسوية ، وغير ذلك . وجهز بمن يهيمن عليه من الأطباء والموظفين والممرضين والصيدلانيين . كما زود بأدوات العلاج والصيدليات . وأعدت به أسرة للمرضى ، وقسم للعلاج الخارجى وكل ذلك بالمجان . وهيئت به قاعة محاضرات تلقى بها دروس الطب ، كما زود بخزانة كتب جليلة القدر .

هذه العوامل جميعها من شأنها أن توقظ الهمة وتشحذ العزيمة ، وتهيىء السبيل إلى الاشتغال الجدى بالعلم . وقد انتهز العلماء هذه الفرصة النادرة ، وتلك الموارد الشهية التى أتيحت لهم ، فنهلوا منها وعلوا . وكان لهم مما أصاب العرب والمسلمين فى تراثهم الفكرى ، ببغداد وغيرها خير حافز على النهوض بتدوين العلوم تدويناً جديدا ، وبالإضافة إليه كلما وجدوا مزيداً ، حتى يعوضوا اللغة والدين شيئاً مما فقداه فى محنهما ، وحتى يبرئوا الذمة أمام الله والتاريخ ، ويبرهنوا أنهم حملوا العبء بقلب ثابت ونفس راضية

وقد كان لهذه الحركة العلمية مظاهر متعددة ، أهمها مظهران هما : الحركة التعليمية ، والحركة التأليفية .

أما الحركة التعليمية فقد انتعشت انتعاشاً محموداً . وكان بالبلاد نوعان من التعليم هما : التعليم العسكرى ، والتعليم الشعبى .

أما العسكرى فقد كان مقصوراً على طائفة المماليك ، محظوراً على أفراد الشعب . وهذه إحدى نقائصه فى نظر المؤرخ الوطنى . وكانت طباق القلعة المقر الرسمى لجنود الدولة منذ عصر قلاوون يجلبون إليها من الأسواق صغاراً ، ويقسمون فرقا حسب أجناسهم ويقيم فى كل طبقة جنس ، يشرف عليه عدد من الزمامين «الأغوات» ويقوم هؤلاء الصغار بتمرينات رياضية سهلة مناسبة ويعلمون الكتابة والقراءة ، ويلقون آيات من الذكر الحكيم ، ويعودون الصلاة وبعض الفروض الدينية . ويحفظون شيئاً من الأدعية ، وتحبب إليهم الأخلاق الفاضلة والدفاع عن الدين والجهاد فى سبيل الله . ثم إذا بلغوا الحلم يعلمون تمرينات رياضية أشد قسوة ، ويمرنون على السباحة واستعمال السيف والرمح ، وقذف الأطواق وركوب الخيل والمبارزة ورمى النشاب ولعب الكرة . وفى هذه المرحلة تنضج مواهب المملوك وتبرز خصائصه وتبدو مهارته وشجاعته . فإذا عرف فضله وشهد بلاؤه ، صار فى عداد الفارين ثم قد يدفع به حظه إلى العتق ثم الترقى فى سلك الإمارة . وقد تسوق إليه المقادير فى أعقاب ذلك سلطنة البلاد .

وقد عنى السلاطين عناية بالغة بتنشئة مماليكهم تنشئة عسكرية صالحة ، كما عنوا بطعامهم وشرابهم وصحتهم ، فتخرجوا — كما قال المقريزى — « سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون فى سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل » . وبتوالى الأيام تراخى السلاطين فى بذل هذه العناية فاضطرب نظامهم شيئاً فشيئا ، وكان لذلك أثره السيىء فى أخلاقهم ، فانقسموا ، شيعا ، وتدخلوا فى سياسة الدولة فأفسدوها ، وشغلوها بأطماعهم غير المشروعة وقعدوا عن الجهاد الصادق ، حتى صاروا كما قال المقريزى «أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً ، وأشحهم نفساً ، وأجهلهم بأمر الدنيا ، وأكثرهم إعراضاً عن الدين ، ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب » .

أما التعليم الشعبى فقد كان مقره المساجد وما شابهها مما أنشأه السلاطين والأمراء ومن لف لفهم — كما ذكرنا — ومعها قيل فى سبب إنشائها ، فهى بلا شك كانت الدعامة الأولى من دعائم هذا التعليم . وقد كانت بمثابة جامعات علمية عظيمة الشأن ، بها من الجامعات الحديثة خصائصها ومميزاتها ، وإن افترقت عنها فى الشكل والعرض . بل لعل التعليم بها كان ميسراً أكثر مما هو ميسر اليوم . وكان الطالب بها حراً يندمج فى عداد من يشاء من الطلاب ويقعد أمام من يشاء من الأساتذة . ويضع جدول حصصه بنفسه ، ويطوف على كل مسجد إذا شاء ليقتطف منه أشهى ثمراته . ولا يتحمل فى سبيل ذلك شيئاً من نفقات التعليم ، بل بالعكس كان يجد البر والمعونة من كثير من أهل الفضل . فإذا أتم إحدى مراحل تعليمه بقراءة كتاب فى مادة ، أو يحفظ طائفة من الأحاديث أو نحو ذلك ، منحه شيخه إجازة يشهد له فيها بتمام هذه المرحلة .

وكان السلاطين يعنون عناية دقيقة باختيار الشيوخ المدرسين فى مدارسهم ، ينتخبونهم من بين الأفذاذ المشهود لهم بالعلم والفضل والذين لا ينون يجعلون العلم ونشره غايتهم الكبرى . وكان بعض هؤلاء الشيوخ يستمر فى مدرسته طويلا ، ويلازمها ، حتى لنستطيع القول — جملة — إن كل مدرسة كان بها منهم هيئة تدريس خاصة بها . لكل مادة من المواد المقررة بها أستاذ . ونذكر على سبيل المثال شيوخ الجامع المؤيدى وهم : شهاب الدين بن حجر العسقلانى لفقه الشافعية . ويحيى بن محمد بن أحمد البجائى المغربى

لفقه المالكية . وعز الدين عبد العزيز بن على بن الفخر البغدادى لفقه الحنابلة . وبدر الدين محمود العينتابى للحديث . وشمس الدين محمد بن يحيى للقراءات . وشمس الدين محمد بن الديرى لفقه الحنفية وشيخ للصوفية . وهكذا .

أما مواد التعليم فقد كان طبيعياً أن تكون العلوم الدينية فى مقدمتها ، بدافع من رد الفعل الذى أحدثته حوادث اغتيال العلماء ومؤلفاتهم فى بغداد وسواها من عواصم المسلمين . وبدافع ما أشرنا إليه من أن البيئة المصرية تحولت إلى حد ما بيئة دينية ألقيت عليها تبعات الذود عن الدين وعلومه وأهله . ويليها علوم اللغة للحاجة الماسة إليها فى درس العلوم الدينية وضبط شئون الدولة . ويليها غيرها من المواد لأنها تكمل المتعلم وتؤهله لتركيز علمه . وكانت مواد التعليم هى الفقه بمذاهبه الأربعة ، وأصول الفقه ، والحديث والتفسير والقراءات والوعظ والكلام والتصوف ثم دروس النحو والصرف والأدب ، ثم الطب والفلك والهندسة والتاريخ والتقويم والرياضة .

وقبل أن يدرس الطالب هذه الدراسة ، يمر بأحد المكاتب المنشأة بجوار المساجد ، ليحفظ به القرآن الكريم ويتعلم مبادىء القراءة والكتابة .

ولم يكن لدور التعليم مناهج خاصة فى موادها المقررة . وأغلب الظن أن منهج المادة كان رهناً برغبة أستاذها . فهو وحده يختار الكتاب الذى يقرؤه فيها لطلابه . ومهما يكن من شىء فقد سمعت كتب خاصة باتخاذها مناهج لموادها المقررة . نعرف ذلك إذا اطلعنا على تراجم الأعلام من علماء العصر ؛ لذلك نستطيع القول إن من بين الكتب التى اتجهت العناية إليها لدراستها ما يلى : التنبيه . المنهاج الأصلى للنووى . الشاطبيتان فى القراءات . العمدة للحافظ النسفى فى الأصول . والكافية لابن الحاجب فى العربية . ومختصر القدورى فى الفقه . وجمع الجوامع . والأربعون حديثاً النووية وتلخيص المفتاح فى البلاغة ، والكنز فى فقه الأحناف . والمنار فى الأصول . وألفية ابن مالك فى النحو . واللمحة . والمختار والمنظومة كلاهما للنسفى فى الفقه . ونظم قواعد الإعراب لابن الهائم . وإيساغوجى فى المنطق . وكتب الحديث الستة .

وقد امتلأت المساجد بطلاب العلم على اختلاف مذاهبهم ، واختلاف بلادهم ، ممن وفدوا على مصر يستظلون بظلها ويستمدون رفدها وينهلون من مواردها . حتى ضاق بهم بعضها على رحبه ، وكان منهم «المنقطعون» وهم الدائمون الذين قيدت أسماؤهم لينالوا شيئاً من الأوقاف بصفة مستمرة . أما غيرهم فاختلط شتى من محبى العلم من الشعب

وأهم ما يوجه إلى هذا الضرب التعليمى من النقد — إذا نظرنا إليه نظرة حديثة — أنه لم يكن سياسة للدولة مرسومة ، بل كان نتيجة جهود فردية ، وأنه لم يؤد إلى الشعب باعتباره حقاً من حقوقه ، بل باعتباره منحة له وتفضلا عليه . وأن الأساتذة عنوا بنشر العلم فحسب ، ولم يتخذوه وسيلة إلى إيقاظ الشعب وتنبيهه إلى حقوقه وواجباته .

غير أنه — بلا شك — نظام قد أنجب . وأغلب نجبائه من رجال الدين — وبلغ بعضهم مرتبة الأئمة المجتهدين . وقاموا بحركة تأليفية مباركة ، هى حلقة فريدة من حلقات العلوم والآداب كان لا بد لحياة العلم والأدب من وجودها .

أما هذه الحركة التأليفية فكانت المظهر الخالد للحركة العلمية . وشجعها السلاطين ودعوا العلماء أحياناً إلى التأليف برسم الخزانات الشريفة . فنهم المؤرخ أبو بكر بن أيبك ، ألف كتابه « كنز الدرر » للناصر بن قلاوون . والطبيب محمد القوصونى ألف للغورى كتاب « كمال الفرحة » فى الطب . وعماد الدين موسى بن محمد اليوسفى المصرى ألف كتابه « كشف الكروب فى معرفة الحروب » للسلطان جقمق .

على أن التأليف لم يكن وقفاً على تشجيع السلاطين أو سواهم ، بل كان غاية من غايات العلماء . لذلك نشطوا فى ميدانه نشاطاً هو مثار الدهشة والعجب ، لبلوغه حداً من الإعجاز . وتعددت مؤلفات بعضهم حتى عدت بالمئات ، وفى فنون شتى . وانسمت أحياناً حتى صارت موسوعات جامعة امتدت فيها آفاق العلم . وعنوا بعلوم الدين أولا ، ثم التاريخ وفنون العربية ، ثم غيرها . وحظى تاريخ الأعلام والخطط بنصيب كبير من العناية . وهكذا ترى أن مؤلفاتهم لا غنية عنها للفقيه والمؤرخ واللغوى والأديب والمحدث والنحوى والبلاغى وغيرهم . وبعضها يعد فريداً فى بابه منقطع النظير .

وأهم ما يوجهه الناقد إليها أن بعضها رسائل صغيرة ، وأن منها ما يشوبه الجمع والنقل ويندر فيه الابتكار . وأن منها المتون وشروحها ومختصرات شروحها . غير أن هذه النقدات يسهل الرد عليها وتعليلها فسياق العصر كان يدعو إليها إسراعاً إلى تدوين المحفوظ ومعجلة إلى تسجيله حذراً من أن تعبث به يد الزمان